مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد6 ، العدد13، (مارس2018) EISSN : 2600-6405

صورة الدولة العثمانية في الرحلات المغربية خلال القرن 18م "رحلة ابن عثمان المكناسي أنموذجا"

الأستاذ: عمار سراح
جامعة الجزائر2 –أبو القاسم سعد الله

الملخص:

لا خلاف حول أهمية ونوعية ما تضمنته الرحلات المغربية الحديثة، من أفكار ومشاهدات خاصة بالعثمانيين، وما زخرت به من توصيفات، وصورت جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية من تاريخ وحضارة الولايات العربية التابعة للباب العالي.

وقد تناولنا في هذه الدراسة نموذجا من هذه الرحلات، وهي رحلة "محمد بن عثمان المكناسي" إلى المشرق، والموسومة بعنوان **(إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب)**، الذي نقل فيها بالوصف والمشاهدة جوانب متعددة من الحياة في الدولة العثمانية وبعض من إيالاتها العربية، وقام "المكناسي" بهذه الرحلة بصفته سفيرا للمغرب لدى الباب العالي.

وأثار الرحالة مواضيع تاريخية استرعت اهتمام الباحثين في هذا الميدان، فإلى أي حد يمكن اعتماد رحلة "المكناسي" كمصدر من مصادر التاريخ المغاربي والعثماني خلال القرن الثامن عشر؟ وكيف صور "المكناسي" واقع الدولة العثمانية سياسيا، اجتماعيا وثقافيا؟

الكلمات المفتاحية: الرحلات. الرحالة. الدولة العثمانية. ابن عثمان المكناسي، الواقع السياسي. المجتمع العثماني. الواقع الثقافي. القسطنطينية.

مقدمة:

نعني بالرحلة عامة السفر الذي يتوخى من ورائه الاطلاع على آفاق جديدة من المناطق المجهولة، وقد يصل الأمر بصاحبها إلى تسجيل أهم ما يتعلق بها في تقرير يصبح وثيقة تاريخية وجغرافية لها بعد ذلك، وهكذا فالرحلة عامة عملية تكشف

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

النقاب عن المجهول من الأرض والناس، فالرحالة في الأساس يمكن أن يكون مكتشفا أو مغامرا أو عالما أو رجل دين أو تاجرا، وتبعا لهذا فهو تحركه دوافع سياسية أو اقتصادية، أو علمية أو دينية.

إن تصنيف مادة الرحلات ودراستها بشكل معمق، من شأنه أن يدفع إلى الأمام بالدراسات التاريخية، ويعتبر المغاربة أشهر من اشتغل في هذا الحقل، واتجهت رحلاتهم إلى المشرق ودول أوروبا، وقد كان لرحلاتهم أهمية كبيرة للتأريخ للفكر العربي الإسلامي.

ولا خلاف حول أهمية ونوعية ما تضمنته الرحلات المغربية الحديثة، من أفكار ومشاهدات خاصة بالعثمانيين، وما زخرت به من توصيفات، وصورت جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية من تاريخ وحضارة الولايات العربية التابعة للباب العالي.

وقد تناولنا في هذه الدراسة نموذجا من هذه الرحلات، وهي رحلة "محمد بن عثمان المكناسي" إلى المشرق، والموسومة بعنوان **(إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب)**، الذي نقل فيها بالوصف والمشاهدة جوانب متعددة من الحياة في الدولة العثمانية وبعض من إيالاتها العربية، وقام "المكناسي" بهذه الرحلة بصفته سفيرا للمغرب لدى الباب العالي.

وأثار الرحالة مواضيع تاريخية استرعت اهتمام الباحثين في هذا الميدان، فإلى أي حد يمكن اعتماد رحلة "المكناسي" كمصدر من مصادر التاريخ المغاربي والعثماني خلال القرن الثامن عشر؟ وكيف صور "المكناسي" واقع الدولة العثمانية سياسيا، اجتماعيا وثقافيا؟

أولا: أهمية الرحلة كمصدر تاريخي:

لعبت الرحلة دورا مهما في انتقال القيم الحضارية وانتشارها بين الأمم والشعوب منذ أقدم العصور، وانفتاح بعضها على نظم البعض الآخر، وتمازجها الحضاري والثقافي ولذلك دأبت النخب الحاكمة على تشجيع مواطنيها الذين اشتهروا بالترحال في البلدان وكتابة تقارير رحلاتهم، وفي بعض الأحيان تصبح إلزامية واجبة، ولم يقف أدب الرحلة خلال الأزمنة الحديثة عند حد التأثير في المجال

السياسي والعسكري، بل تعداه إلى التأثير في المجال المعرفي؛ العلمي والفلسفي والفني، ووسيلة لانتشار القيم الحضارية بين المجتمعات، ووثيقة سوسيولوجية، ومصدرا لمعرفة الذهنيات والعقليات وتطورها عبر الزمان والمكان [1]، فتصنيف مادتها ودراستها بشكل معمق، من شأنه أن يدفع إلى الأمام بالدراسات التاريخية. وان اختلفت أنواع الرحلة بين دينية وساحية وعلمية وسفارية، وهناك بعض الرحلات التي اشتملت على هذه الأنواع كافة، ومن بينها الرحلة التي ندرسها

فكتاب (الإحراز) هذا زاخر بمعطيات يحتاج إليها الباحث عن أوضاع عاصمة الخلافة العثمانية وولاياتها العربية في مختلف الميادين بموضوعية تجعل منها وثيقة جديرة بمكافحة المصادر الأخرى لتصحيح الصورة الملتصقة بتلك الأوضاع فضلا عن مادتها الأدبية الممتعة.[2]

إن هذه الرحلة التي تصنف ضمن التقارير التي تنظر إلى أوضاع الدولة العثمانية من "الخارج" وتساهم في تصحيح الأحكام التي علقت بها نتيجة للاعتماد على تقارير الأوربيين، باعتبار الموقع الوسطي الذي اتخذه المؤلف فهو عربي مسلم غير خاضع للحكم التركي، ولكن له غيرة على ابراز القوة في الدولة الإسلامية دون السكوت عن مظاهر الضعف بشكل يمكن اعتباره مصدرا للتاريخ العثماني من الداخل نظرا الى العلاقات المتينة التي ربطت المغرب ونخبته العلمية والسياسية بالباب العالي [3] ، وقد حرص السلطان المغربي شخصيا على تدوين الرحلة رغم ثراء مادتها وطول مدتها، ذكر المؤلف ذلك في قوله: " **وعهد إلينا أدام الله سعادته، وحرس مجادته، أن نرسم له ما تتفق رؤيته في هذا السفر في البدو والحضر. فحاولت أن لا أرسم شيئا إلا وضحته، امتثالا لأمره الذي طبق الافاق...**" [4]

([1]) حسام هاب، **ثنائية التقليد والحداثة في خطاب النخبة المغربية خلال القرن 19م: الرحلات السفارية أنموذجا**، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المغرب، ص1

([2]) أحمد الحمروني، **مدن تونسية في رحلة المكناسي**، الحياة الثقافية، ع159، 1يوليو 2004، تونس، ص 86،87

([3]) نفسه، ص 87.

([4]) محمد بن عبد الوهاب المكناسي، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**، تحقيق: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2003، ص49.50.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

والتزم بالتدوين فورا، لا كما فعل الرحالة عادة من تحرير رحلاتهم بعد العودة إلى أوطانهم معتمدين الذاكرة التي تنسى وتزيد، لذلك جاءت رحلة "المكناسي" ثابتة دقيقة بالمشاهدات الموصوفة وبالنصوص المنقولة من الكتب [(1)]

ثانيا: التعريف بصاحب الرحلة: (محمد بن عثمان "المكناسي)

أما صاحب الرحلة فهو محمد بن عثمان "المكناسي" المولود بمدينة (مكناس)، واسمه الكامل هو محمد بن عثمان بن عبد الوهاب المكناسي، لا يعرف بالضبط تاريخ ولادته وانما يفترض بحسب ظروف حياته أنه ولد بمدينة مكناس أواسط القرن 12هـ/18م على وجه التقريب وبنفس البلدة كانت دراسته للعلوم والآداب وبرز في ميدان الكتابة والشعر[(2)]،من أسرة علمية، حيث كان أبوه خطيبا بأحد مساجد تلك المدينة، وخلفه ولده في ذلك بعد موته وهو ما يزال في مقتبل العمر، ولما علم السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمقدرة ابن عثمان وكفاءته قرّبه إليه ليكون من كتّاب بلاطه، ولا نعلم عدد السنين التي قضاها في هذا المنصب، ثم زادت ثقة السلطان به فسماه حاكما لمدينة تطوان، ثم عيّنه وزيرا.

توفي ابن عثمان بمراكش عام 1213هـ/1799م [(3)]، حدث في هذه السنة الوباء ببلاد المغرب وعمّ حواضره وبواديه وهو الوباء الذي توفي فيه الوزير والسفير ابن عثمان المكناسي[(4)]

أخذ العلم في المغرب عن السلطان مولاي سليمان، ولقي في الشام سعد الدين الحنفي، ومحمد بن محمد الغزي الشافعي، وإسماعيل الجراعي الحنبلي، وفي تونس العالم المغربي أحمد بن عبد الله بن محمد السوسي السكتاني. [(5)]

رحلات ابن عثمان الى الخارج:

([1]) أحمد الحمروني، مرجع سابق، ص87.

([2]) محمد المنوني وامحمد بن عبود، **رحلة ابن عثمان إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين**، مجلة المناهل، ع39، 1ديسمبر1990، ص2.

([3]) محمد الأخضر، **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311هـ/1664-1894م)**، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1977، ص334

([4]) العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، ط2، ج6، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص 145.

([5]) محمد الأخضر، مرجع سابق ص 335.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

قام محمد بن عثمان بأربع رحلات سفارية، ثلاثة منها أيام السلطان محمد بن عبد الله، والأخيرة على عهد مولاي اليزيد. كان في صدر الذين جندهم السلطان المغربي محمد بن عبد الله(1171-124هـ/1757-1790م)للقيام بالمساعي الدبلوماسية، فهو شخصية دبلوماسية لامعة مثلت المغرب أحسن التمثيل.

1. كانت أولى رحلات ابن عثمان عام 1193هـ/1779م، إلى إسبانيا، لعقد اتفاق مع ملكها كارلوس الثالث بغية تحرير الأسرى الجزائريين المعتقلين في اسبانيا، وتجديد علائق المودة بين العاهلين. [1]

2. وبعد ثلاث سنوات 1196هـ/1782م، بعث السلطان المغربي محمد بن عبد الله بابن عثمان سفيرا الى مالطا ونابلي فكتب رحلة ثانية بعنوان "البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر"[2]، لافتداء الأسرى المسلمين هناك، " [3]، وذكر صاحب كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى أنه قد تم اختصار لهذه الرحلة من طرف الشيخ أبو عبد الله بن الحسن الحجوي، سماه " **أنس السائر في اختصار البدر السافر**" وذكر أنه يقع في كراستين" [4]، ولم يتح لنا الوقوف على هذا الاختصار.

3. وبعد ثلاث سنوات أخرى 1200هـ/1785م، أرسله السلطان محمد بن عبد الله سفيرا إلى تركيا، للاتفاق مع الخليفة العثماني عبد الحميد الأول على إنهاء قضية بعض القلاقل التي تسبب فيها جنود أتراك على الحدود الجزائرية-المغربية، وبعد انهاء المهمة الموكلة إليها، قام بأداء فريضة الحج، وقدم إلى شرفاء

([1]) محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، تحقيق: محمد الفاسي، المركز الجامعي للحث العلمي، المغرب، 1965.

([2]) محمد بن عثمان المكناسي،**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**، تحقيق: مليكة الزاهدي دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1995.

([3]) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص 335.

([4]) عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى: دليل ابن سودة**، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997 ص228.

الحرمين الشريقين من قبل مخدومه ملك المغرب، وطالت غيبته في هذه الرحلة الثالثة سنتين وعشر أشهر، كتب على إثرها رحلة بعنوان: إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام. (1)، وقد كان من أروع ما قام به خلال تنقلاته هذه هو أنه دون مذكراته عنها. (2)

4. ثم جاء دور السلطان المولى اليزيد، فأوفد ابن عثمان إلى ملك اسبانيا، وكان قد تسلم العرش منذ قليل، غير أن العلاقات بين الدولتين لم تلبث أن تدهورت، وعزل ابن عثمان من منصبه، وعوض مرة أولى، ثم أعيد إلى عمله عام 1206هـ/1791م، وأخيرا التحق ببلاده عند وفاة السلطان في نفس السنة. (3)

يقول ابن زيدان في الاتحاف: ثم عثرت بعد ذلك على كلام بعض المؤرخين من الافرنج يدل على أنه تولى السفارة للسلطان المذكور إلى امبراطور النمسا، وأنه تولى السفارة من بعد لولده مولاي اليزيد إلى الدولة الاسبانية، فقد ذكر" أكرابير دي همسو"في كتابه الموضوع باللغة الإيطالية المسمى (المظهر الجغرافي والتاريخي للمغرب) أن ابن عثمان توجه سفيرا لنابولي. ثم سار منها سنة 1783م إلى فيينا عاصمة النمسا من قبل السلطان لعقد معاهدة سلمية تجارية بين الدولتين، وكان امبراطور النمسا يومئذ جوزيف الثاني. (4) وهو نفس الأمر الذي ذهب إليه الأستاذ محمد الفاسي. (5)

ترك ابن عثمان فضلا عن كتاباته النثرية في الرحلات الثلاث ورسائله الديوانية والاخوانية، قطعا شعرية عديدة أدرج بعضها في ثنايا رحلاته، (6) وهي تدل على ما له

(1) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص 336. **أنظر أيضا**: ابن سودة، **دليل مؤرخي المغرب الأقصى**، ص227.

(2) عبد الهادي التازي، **صقلية في مذكرات السير ابن عثمان**، مجلة المناهل، ع1، سنة4، نوفمبر، ص164،163.

(3) محمد الأخضر، مرجع سابق، **ص336.**

(4) ابن زيدان عبد الرحمان بن محمد السجلماسي، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق: علي عمر، ج4، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص192-193.

(5) محمد الفاسي، **"الرحالة المغاربة وآثارهم-3-"**، مجلة دعوة الحق، ع4، السنة، السنة الثانية، إصدار وزارة عموم الأوقاف، يناير1959، ص 24.

(6) محمد الأخضر، مرجع سابق، ص336.

له من قدم راسخة في مضمار الشعر أيضا، وبالجملة كانت أشعار ابن عثمان وأغلبها هزل وملح، مليئة بالحيوية وحلوة الانشاد. (1)

وما يمكن أن نلاحظه أن ما سجله ابن عثمان في رحلاته كان دقيقا ومثيرا، معبّرا عنها بنثر مرسل رائق، وذلك عكس ما نجده في رحلته الحجازية ورسائله، من نثر فني مثقل بالسجع، يجعل قراءته متعبة وصعبة. (2)

ثالثا: السياق التاريخي للرحلة:

أ-العلاقات المغربية-العثمانية خلال القرن 18م:

إن السياق العام الذي كانت فيه رحلة المكناسي وهي من رحلات القرن 18م وهو قرن شهد وجود توصيفين لحالة العلاقات بين البلدين ففي عهد المولى إسماعيل تميزت العلاقات المغربية- العثمانية في أكثر فتراتها بالتوتر، ويعود ذلك حسب ما ذكرة عبد الهادي التازي الى الصراع بين المغرب وأتراك الجزائر، إلا أن ذلك لم يمنع وجود حالة من التقارب بين الدولتين عبرت عنها ارسال السفراء والتهاني في المناسبات المختلفة، بوفاة السلطان المغربي "مولاي إسماعيل" (3) سنة 1729م، انتهت حقبة من العداء والحذر في علاقات المغرب الخارجية خصوصا مع العثمانيين، وبدأ التغيير تدريجيا في سياسية البلدين من التوتر والمواجهة إلى المهادنة والتعاون، وتجلى ذلك في عهد السلطان المولى عبد الله (1728-1757م)، الذي يخاطب السلطان العثماني في رسالة تقول: "**وأنا أخطب بك في مساجد الجمعة والأعياد كما فعل والدنا مع أسلافكم الجياد، ولولا أن الغرب صعب المرام، لاستعملت أقدام الأقدام إلى حضرة ذلك الهمام، فهو جدير من أن يجعلني من أحبائه، وأن يحمل على هذا الخطب عظيم أعبائه، وبذلك المجهود والمقصود**"، وباستثناء هذه الرسالة فإن فترة الأزمة السياسية تميزت عموما بانشغال العثمانيين بحروبهم مع الروس وحلفائها، والمغاربة مشغولين بخلافاتهم حول السلطة (4)، إلا أن العلاقات

---

(1) المرجع نفسه، ص**338**.

(2) المرجع نفسه، ص**339**.

(3) عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب: من أقدم العصور إلى اليوم**، مج9، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، 1988، ص14.

(4) خالد فؤاد طحطح، **العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث ق 16-18م**، مجلة كان التاريخية، ع14، ص 106-109.

بين الدولتين المغربية والعثمانية، شهدت انقلابا وتحولا في مسارها خلال النصف الثاني من القرن 18م، وذلك بعد تولي المولى "محمد بن عبد الله" الحكم (1775-1790م)، يقول "الزياني": **"وكان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله عالي الهمة يحب الفخر ويركب سنامه، ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء ويخاطبونه مخاطة السادة، ويمدهم بالأموال والهدايا حتى علا صيته عندهم، وأكثر السلطان محمد بن عبد الله في التودد للعثمانيين" [(1)]، ويقول الناصري أنه دعا لهم بنفسه وللسلطان عبد الحميد الأول في صلاه العيد سنة 1198هـ"**، حيث دشن قطيعة حقيقية مع الماضي إذ انتهج سياسة انفتاحية شاملة.

ب -دوافع رحلة المكناسي:

بالرغم من كون أن نصوص الرحلات السفارية[(2)]لا تعبر عن الموقف أو حتى تفاصيل المهمة الرسمية التي أوكلت بها بشكل مباشر بل تصبح نصا شفافا ورمزيا، وحقيقة أخرى موازية للحقيقة الرسمية [(3)]، فهي عادة لا تفصح عن هدفها الحقيقي مكتفية بالجانب البروتوكولي لأسباب أمنية [(4)] -ورحلةالمكناسي إلى إسطنبول تندرج ضمن هذا النوع من الرحلات، والذي اشتهر به المغاربة على وجه الخصوص-، لكن يمكننا استخلاصالسبب الرئيسي لهذه الرحلة (رحلة احراز المعلى)، تعود إلى أنه لما

([1]) أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق، عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر، الرباط، 1991[1]

([2])الرحلات السفارية: يمكن تعريفها بأنها فرع من الأدب الرحلي، بمفهومه العام، ينصرف موضوعه العام إلى وصف ما شاهده الكاتب أو سمعه في رحلته أو سفرته للقيام بمهام السفارة، مبعوثا من قبل الأجهزة العليا في بلده، لدى أمة أو دولة أخرى، قريبة أو بعيدة، إسلامية أو أجنبية، وتكون أحيانا من إنشاء السفير نفسه، إن كان في الوقت ذاته من رجال الأدب والعلم، وأحيانا أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتاب الذين رافقوا السفيرومن أجل تبادل وجهات النظر وتوثيق العلاقات، أو تمهيدا لعقد اتفاقيات أو لفض المنازعات.**أنظر**:فريد أمعضشو، **خصائص الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر**، مجلة البيان الكويتية، ع 521، الكويت، 01 ديسمبر 2013، ص 50

([3]) عز المغرب معنينو، **وصف صنائع الفرنج وحيلهم العجيبة للجعيدي**، أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر-المغرب منطلقا وموئلا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص 106.

([4]) عبد الرحيم لمودن، **صورة-الآخر-ومعطيات ديموغرافية في الرحلة السفارية من خلال تحفة الملك العزيز بمملكة باريز لإدريس العمراوي**، مجلة كنانيش، ع3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة-المغرب، 2001، ص 56.

بعث السلطان المغربي محمد بن عبد الله سفارة قبل سفارة المكناسي، وهي سفارة عبد الكريم العوني التطواني سنة 1199هـ/1785م، و التي كان الباعث من ورائها مناقشة مسألة أهل الجزائر [1]، ووجه السلطان مع السفير رسالة خاصة بأهل الجزائر وضررهم بالمسلمين.

ولما وصل الى اسطنبول وأدى الرسالة كتبت الدولة العثمانية إلى حاكمي الجزائر وتونس تأمرهم بالتأدب مع سلطان المغرب كما يتأدبون مع سلطانهم، واستوصى بأهل الجزائر وتونس ووجهت مع السفير العوني أحد كتّابها وهو إسماعيل أفندي من قبل السلطان عبد الحميد الأول مصحوبا بهدية ورسالة جوابا عن الرسالة التي وجهها إليه.[2]

وذكر أبو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى الأسباب الموجبة لهذه السفارة والرحلة ومن جملتها أن السفير العثماني المذكور أعلاه-أي السفير العثماني إسماعيل أفندي- صدرت منه تصريحات أثناء سفره توهم أن الأوامر التي جاء بها لأهل تونس والجزائر تتضمن أن يكونوا عند أمر سلطان المغرب، يعني أن ينضموا تحت سلطان ملك المغرب، ولما بلغ هذا الأخير ذلك اعتمده، لكن تبيّن بعد ذلك أن السلطان العثماني ذكر في رسالته التي تضمنت في الأصل الاعتذار عن حكّام تونس والجزائر لا غير، وأنهم سيلتزمون الأدب معه واستوصى بهم خيرا وذكر أنهم أهل جهاد. فأعرض السلطان محمد بن عبد الله عن هذا السفير العثماني وأمر بعودته لبلاده. [3]

([1]) وذلك أن السلطان المغربي بعث برسالة إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول يذكر له فيها حال أهل الجزائر معه، وما هم عليه من الجور والظلم لضعفاء العرب الذين كانت وفودهم تلوذ به، وتشكوا إليه ما يقاسونه منهم، وكان يكتب إليهم ويحضهم على العدل وينهاهم عن الظلم، فلا يسمعون له كلاما، ويقابلون من يأتيهم بمكاتبه بالعقوبة الفادحة –حسب ما ورد في رسالة السلطان دائما-ولما أعياه أمرهم، كتب بهم إلى سلطانهم مع هذه السفارة. **أنظر:**جعفر بن أحمد الناصري،**سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية**، تحقيق: أحمد بن جعفر الناصري، ج4، مطبوعات أكاديمية الملكة المغربية، الرباط، 2006، ص 95. وأيضا: أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى**، ص 82-85.

([2])جعفر بن أحمد الناصري، مرجع سابق، ص 95. وأيضا: أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى**، ص 82-85. **الاتحاف**، ج3، ص 353 وماتلاها.

([3]): أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى**، ص 82-85.

وأرسل الكاتب والسفير محمد بن عثمان الى السلطان العثماني [1] وقال له: إذا بلغت إسطنبول فعرّفهم بأن هذا الرسول كذاب ولا يصلح للسفارة بين الملوك. [2]

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن رحلة "المكناسي" ماثلتها عدة رحلات، ونجد من بينها رحلة "التمكروتي"[3]، إلى الباب العالي، سنة 1589م، وكذا رحلة " أبو القاسم الزياني" إلى القسطنطينية التي كانت سنة 1789م [4]، وغيرها من الرحلات.

رابعا: صورة الدولة العثمانية من خلال الرحلة:

أ. الواقع السياسي:

إن أول ما ابتدأ به "المكناسي" حديثه عن الدولة العثمانية هو إبرازه لتصوره عن هذا الدولة وعاصمتها (القسطنطينية) [5]، التي كان يراها حاضرة عظمى في العالم حينها، وهذا ما يترجمه قوله: "**وأمرنا أدام الله علاه وكان له في جميع أموره وتولاه، بالتوجه أولا إلى القسطنطينية العظمى والحضرة الفخمى، حتى نتلاقى مع سلطانها الأعظم الخاقان المعظم، خديم الحرمين الشريفين والقدس الشريف أول القبلتين، السلطان عبد الحميد خان...**" [6]

ما أورده الرحالة من خلال قوله السابق يبين لنا تلك الصورة التي ارتسمت في المخيال والفكر السياسي المغربي، فنلاحظ نظرة العظمة والافتخار المغربي بالدولة

([1]) محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق وتعليق: وتقديم: أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، 1986، ص193-194.

([2]) جعفر بن أحمد الناصري، مرجع سابق، ص 95.

([3]) علي بن محمد التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية 1589، تحقيق: محمد الصالحي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2007.

([4]) الزياني، مصدر سابق، ص132.

([5]) **القسطنطينية**: هي المدينة الكبرى وعاصمة الدولة العثمانية بعد فتحها سنة 1453م على يد محمد الفاتح، أسسها بيزنتس حوالي 1200 ق.م، ودعيت بيزنتية نسبة إليه، تعاقب على ملكها العديد من الأجناس والدول، (بيزنطيين وفرس ويونانيين والنورمانديين، ...) وفي سنة 192 ق.م تم تدمير المدينة على يد الرومان، ليعيد الملك الروماني قسطنطين الأول ترميمها وبناءها وذلك سنة 330 ق.م، لتسمى باسمه " القسطنطينية" ولما فتحها السلمون على يد محمد الفاتح سنة 1453 أصبح تعرف باسم "إسلامبول"، وهي مدينة من أحسن مد العالم موقعا وأجملها مركزا، تقع على خليج البحر الأسود ومشيدة على سبع تلال من أطراف أوروبا. **للمزيد أنظر**: عزتلو يوسف بك أصاف، **تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن**، كلمات للترجمة والنشر، القاهرة-مصر، 2011، ص21 وما تلاها.

([6]) محمد بن عبد الوهاب المكناسي، **احراز المعلى والرقيب**، مصدر سابق، ص 48،49

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

العثمانية، وذلك رغم عدم بسط هذه الأخيرة نفوذها وسلطانها على المغرب، وربما تبين لنا أيضا حسن العلاقة بين الدولتين خلال هذه الفترة.

لقد نقل لنا الرحالة والسفير "محمد بن عثمان المكناسي" صورة من الداخل عن الدولة العثمانية، ومن منظور عربي إسلامي لم يكن ينتمي إلى سلطان الباب العالي، فذكر لنا في الجانب السياسي التراتبية التي كانت تميزه، وقد أتى "المكناسي" على ذكر أعلى سلطة سياسية في البلاد متمثلة في شخص السلطان "عبد الحميد الأول"، في عدة مواضع من رحلته، وبين أنه هو الثامن والعشرون من ملوكهم، ونقف هنا على جملة أوردها المكناسي: "**والمدار كله في هذه الدولة على الوزير، وأما السلطان فلا يباشر شيئا من الأمور**".

ربما هذه الجملة في ظاهرها تبين لنا ضعف السلطان، مقابل اتساع صلاحيات الصدر الأعظم [1] في تسيير شؤون الدولة، لكن هذا الرأي يمكن أن يتغير إلى الضد ويقرأ من آخر، لأنه عند اطلاعنا على مراجع أخرى نلاحظ أن السلطان "عبد الحميد الأول"بقي في الحكم مدة 16 سنة، قام خلالها بتنصيب وعزل العديد من الصدور العظام، وهذا الأمر يمكن أن يحيلنا إلى فكرة مفادها قوة شخصية هذا السلطان. ويمكن أن نفسر هذا التغير الدائم واللااستقرار في أعلى الهرم حيث نلاحظ مثلا: انه بعد اعدام الصدر الأعظم مصطفى باشا كمنكش أي خلال الفترة (1644م-1656م)، تعاقب 18 رجلا على منصب الصدر الأعظم، حيث أعدم 4 منهم وتنحية 11 آخرين من مناصبهم، وتنحي 2 من تلقاء نفسهما وموت واحد ميتة

(1) **الصدر الأعظم:** استحدث منصب الصدر الأعظم – رئيس الوزراء في وقتنا الحالي-بقصد تصريف القضايا اليومية للدولة، كان لهذا الدور شأن كبير إذ كان ينوب عن السلطان اثناء قيامه بحملات الفتوحات، وكانت له سلطات واسعة للقيام بواجبات ومقتضيات العمل**يعتبر** رئيس حكومة السلطان والموظف الأول في الإمبراطورية العثمانية وهو رئيس مجلس الوزراء بعد الإصلاحات التي كانت في الدولة العثمانية في الثلاثينيات من القرن 19م ، **أنظر**: عبد العزيز الشناوي، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ج2، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1983، ص 560-559. **أنظر أيضا**: نينل الكسندروفا دولينا، **الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر**، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999، ص 175.

طبيعية[1]، ويظهر كذلك التعاقب السريع نفسه في الوظائف العليا الأخرىمما يبرز حالة الصراع على مستوى السلطة والمناصب الحساسة في الدولة العثمانية.

وأشار صاحب الرحلة إلى اطلاع السلطان وإشرافه على أمور وشؤون دولته، وهذا في قوله: " **وفي خلل ذلك كانت تأتي براوات من عند السلطان إلى الوزير مختومة، فيقوم من مجلسه فيقبضها ممن أتى بها ويقوم جميع من في المجلس إجلالا لأمر السلطان، وكنا نفعل ذلك من جملتهم والكل بمرأى من السلطان ومسمع**" [2]، كما يدلنا هذا الوصف على هيبة السلطان، وأن مهام الوزير لا يقوم بها إلا بتفويض وأمر منه.

إضافة إلى هذا أشار "المكناسي" إلى عرف أو تقليد سياسي مفاده أن السلطان لا يقابل الوفود والسفراء بصفة مباشرة وإنما من وراء حجاب، تاركا مراسيم ومهام الاستقبال للوزير أو الصدر الأعظم، وبرر "المكناسي" هذا الموقف بأنه راجع إلى حادثة وقعت لأحد سلاطين الدولة العثمانية وهو "السلطان مراد الغازي"، الذي قتل غدرا في إحدى معاركه [3].

ثم ينتقل ابن عثمان إلى حديثه عن التدخل العسكري في الحياة السياسية ونلمس من خلال قول الرحالة: "**وعندهم من القواعد المقررة والقوانين المسطرة، أن يصنع السلطان طعاما يحضره يوم تفريق الراتب على العسكر، ويحضره قبالة المكان الذي يفرق فيه المال، والسلطان حينئذ من الرجاء والخوف لا يستقر فؤاده في جوف، لأن من عاداتهم إذا حضر الراتب ليفرق على العسكر وذي المناصب والمراتب، وأحضر الطعام كما سبق به الإلمام، فإن بادر العسكر ولم يظهروا انحرافا ولا ليا، فما أبرك ما أعطى وما هيأ، وإن امتنع العسكر عن الأكل جهارا، أيقن السلطان بالعزل نهارا، وضاقت به الدنيا سوارا، وبلغت الروح التراقي، وأعجز ذلك الداء الراقي، ولم يغن عنه حميم ولا نديم، كدابغة وقد حلم الأديم، وينصبون من اتفقوا عليه قبل ذلك للخلافة، والعزل بعد الولاية من أعظم آفة، ويجعلون المعزول في موضع المولى في دار يسمونها القفص، يتجرع**

([1]) روبرت منتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: بشير السباعي، ج1، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع، القاهرة، 1993، ص 358.

([2]) محمد بن عبد الوهاب المكناسي، **احراز المعلى والرقيب**، مصدر سابق، ص 64.

([3]) نفسه، ص66،67.

بالعزل كل غصص، فعند الخليفة يوم تفريق الراتب على العسكر كأنه يوم نكير ومنكر" [1].

إنها شهادة واضحة وبينة المبنى والمعنى، تبين بما لا يدع مجالا للشك تدخل الإنكشارية [2]، في الحياة السياسية للدولة العثمانية، وكان لهذه المؤسسة خاصة منها دور كبير بعد فتح القسطنطينية 1453م، وبعدها في القرون اللاحقة تضخم ونما دور هذه المؤسسة الأمر الذي كان من الأسباب الرئيسية في انهيار الدولة العثمانية، وبدأ اختلال الدولة أول ما بدأ باختلال نظام الانكشارية [3]،فتلاعبهم بتولية السلاطين وعزلهم وكذا بمناصب كبار رجال الدولة، وأولهم الصدر الأعظم، حيث كان هذا المنصب يخضع لأهوائهم الشخصية، فعينوا من أرادو حتى وصل بهم الأمر لقتل الصدور العظام وحتى السلاطين [4] ولتأثيرهم القوي على السلاطين في تولية العرش، اتبعوا وسيلة الاكثار من الطلبات الخاصة بهم، مما يجعل السلطان الجديد يعمل على إرضائهم ومنحهم امتيازات جديدة. [5]

وبعد السلطان يأتي الصدر الأعظم وهو بمثابة وزير أول، ووقف "المكناسي" على مهام الوزير ويقصد به طبعا الصدر الأعظم، الذي له صلاحية استقبال الوفود والسفراء القادمين للسلطان، وأتى به في غير موضع من رحلته، يقول: "**وبعد خمسة أيام من نزولنا استدعانا الوزير إلى ملاقاته، لأنه من عادتهم أن السفير إذا قدم عليهم أول من يتلاقى بعد الاستراحة مع الوزير**" [6]، كما أن الوزير هو من يتلقى

([1]) نفسه، ص 99.

([2]) **الإنكشارية**: مصطلح يتكون من الكلمتين التركيتين: "يني تشيري" والتي تعني الجيش الجديد أو السلاح الجديد، وهي قوات خاصة مميزة في الإمبراطورية العثمانية، تم تأسيسها في النصف الأول من القرن الرابع عشر للميلاد، على يد السلطان أورخان، وفي سنة 1826م قام السلطان محمود الثاني بالقضاء عليها. أنظر: نينل الكسندروفا دولينا، مرجع سابق، ص 174.

([3]) حسن الضيقة، **الدولة العثمانية الثقافة والمجتمع والسلطة**، دار المنتخب العربي، بيروت، ص 92-93.

([4]) ساطع الحصري، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، دار العلم للملايين، بيروت، 1 ص 48-47.

([5]) أماني بنت جعفر بن صالحالغازي، **دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية**، دار القاهرة،القاهرة، 2007، ص15.

([6]) محمد بن عبد الوهاب المكناسي، **احراز المعلى والرقيب**، مصدر سابق، ص62،63.

مكاتبة السفراء وينظر فيها، وذكر أن الهدف من ذلك هو ترجمة الرسالة التي أتى بها السفير إلى لغتهم قبل توجيهها إلى السلطان.

ثم واصل الرحالة وصف ونقل مشاهداته عن برتوكولات الاستقبال في القسطنطينية يقول "المكناسي" واصفا استقبال السلطان للسفارة المغربية: " **ثم أتى أناس آخرون على رؤوسهم قلانس طوال بيض مثل السلة الصغيرة، وبأيديهم أوراق متعددات، وأخذ يقرؤها رجلان أحدهما عن يمين الوزير والآخر عن يساره، والوزير يجيب ويوقع على كل كتاب جوابه، قيل أن تلك الرقاع فيها عرض أحوال الناس وشكاياتهم...**" [1]، ومنه فإن الصدر الأعظم يتمتع بصلاحيات واسعة تخوله الحسم في مختلف القضايا السياسية والاجتماعية في الدولة.

ثم ينتقل السفير إلى وصف أجهزة المؤسسة الحاكمة في الدولة العثمانية، وذلك عند حديثه عن استقباله من طرف السلطان في قصره، والتراتبية التي تميز هذه الأجهزة؛ حيث بدأ بذكر منصب قاضي عسكر [2]، ثم تطرق لوصف رجلان يقفان بباب القبة هما بمثابة صاحب المشور في المغرب كما قال "المكناسي"، ويطلق على هذا المنصب اسم "شاوش باش". [3]

ودائما في إطار الحديث عن أجهزة الدولة يواصل الرحالة وصفه لها، ووقف عند منصب "صاحب العلامة" وهو الشخص المسؤول عن حمل خاتم السلطان، ثم أتى على ذكر مجلس الديوان الذي بين أنه يجتمع في مناسبات معينة مثل: عرض العسكر لقبض الرواتب، أو الأعياد، ويمكن القول أن مجلس الديوان هو هيئة تجتمع بأمر السلطان [4].

ب. الواقع الاجتماعي:

([1]) نفسه، ص64.[1]

([2]) **قاضي عسكر**: وهو الحاكم العسكري الأكبر (قاضي الجيش)، ومرجع القضاة وأميرهم من الناحية لمدنية، وقد استحدث هذا المنصب سنة 1361م. أنظر: أحمد علي خليل، **الدولة العثمانية في سنوات المحنة**، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2010، ص36.

([3]) **شاوش باش**: هو رئيس الجاوشات المسؤول عن البروتكول والنظام خلال انعقاد الديوان واحتفالات القصر، أنظر: محمد بن عبد الوهاب المكناسي، **احراز المعلى والرقيب**، مصدر سابق، ص65.

([4]) نفسه، ص 64.

تناول "المكناسي" الجانب الاجتماعي بشكل موجز ومختصر، ولم يفصل في الحياة الاجتماعية لعامة الناس، وإنما ركز على الطبقة الحاكمة وكبار أعيان الدولة، أي أن السفير كان شحيحا في طرحه للمعلومات الاجتماعية، وربما يعود ذلك إلى كون أن هذه الطبقة كانت أكثر من احتك به المكناسي مقارنة بباقي فئات المجتمع العثماني وذلك يرجع إلى طبيعة مهمته.

ومما لاحظه "المكناسي" من خلال كتابه (الإحراز) وجود عدة طبقات في المجتمع العثماني، وبين ذلك في قوله: "**فاجتمع الناس على طبقاتهم ووجوه الدولة على مراتبهم بباب دار السلطان، وكان يوما مشهودا**" [1]، وأتى بكلامه هذا عند وصفه لزفاف أميرة عثمانية، ويمكن أن نستنتج من كلام الرحالة أن الناس في المجتمع العثماني يقسمون إلى طبقات وفق وظائفهم وحرفهم ومهنهم، حيث يقول: "**ولما قرب الزوال خرجت أولا من باب دار السلطان الخيل راكبة عليها فرسانها متتابعين على أربعة صفوف، وبعد أن نفذت الخيل تبعهم العسكر الرجالة أفواجا أفواجا، على مراتبهم وطبقاتهم واختلاف هيئاتهم، ثم تلاهم المعلمون وأهل الصنائع والحرف في هيئة عجيبة، وأهل كل صنعة حاملون معهم آلات حرفهم ليميزوا بها**". [2]

ومن خلال هذه الرحلة يصف لنا "المكناسي" حالة الترف والبذخ التي تميز حياة كبار أعيان الدولة بصفة عامة واحتفالاتهم بصفة خاصة، ويقول في هذا الصدد: "**ثم أتى في آخر القوم الوزير الأعظم وشيخ الإسلام في مركب عظيم من الرجالة حافين بهم، وبعدهما أقفاص من الذهب مملوءة يواقيت واحجار نفيسة...وبعده الكدش الذي فيه العروس مرصع بالذهب في غاية الزينة...وقد أخبرت أنهم قدروا أواني الفضة التي أعطى السلطان ابنة أخيه من جملة جهازها سبعة وثلاثين قنطارا بالوزن المغربي الآن، ومن الحسك الذهبية خمسون، وأما الفرش والستور والبسط وغير ذلك فلا نطيل به وليقس على ما قبله**" [3].

([1]) نفسه، ص100.

([2]) نفسه، ص100.

([3]) نفسه، ص101.

ثم تطرق إلى الحديث عن العادات في مواضع متعددة، فوصف لنا مراسم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، الذي له اعتناء عند العثمانيين، وهو ما يوحي لنا بتمسكهم بالتقاليد الإسلامية.

ومن العادات التي استنكرها الرحالة وأثارت حفيظته في الاحتفال بالمولد النبوي عادة تكسير الأواني بعد الأكل والشرب، يقول: "**وبعد أن فرق الناس وتطيبوا، وأكلوا وشربوا وطربوا كسروا الأواني جميعا، بعد أن أراقوا من دمها نجيعا، لكن استنكرت عليهم تكسير الأواني وعدم التفاتهم إلى ضيوفهم، فإنهم لم يدعوهم إلى شيء مما تناولوه ولا بعثوا به إليهم وحضورهم معهم في مجلس واحد، وإنما كانوا يكرمون أنفسهم جبر الله حالنا وحالهم**". (1)

حسب الرحالة فإن هؤلاء الناس غير مبالين بالضيوف، ولا توجد فيهم خصلة إكرامهم، كما أشار إلى تفضيل الأتراك جنسهم عن أي جنس آخر، فهم يرون أنفسهم أفضل من الأجناس الأخرى، يقول: "**ورؤية تفضيل جنسهم على كل جنس...فبينهم وبين هذا الجنس العربي تباين كلي وتنافر قولي وفعلي، لا يجنحون إليهم بحال وألفتهم إياهم كادت أن تكون من المحال**"، وهو نفس النظرة التي نقلها قبله التمكروتي وبعده الزياني، هذه الجملة أوردها "المكناسي" في كلامه عن طبقة الأعيان، ولا ندري أيمكن أن نعمم هذه الصفة على بقية طبقات المجتمع، أم أنها تختصر على الأكابر فقط.

ج. الواقع الإداري والعلمي:

أوغل "المكناسي" في شرح وتفصيل بعض نقاط هذا الجانب خاصة فيما يتعلق بالمراتب العلمية، والتي نلمس من خلال قراءتنا لها أنها تعبر عن مناصب ووظائف إدارية أكثر منها علمية، كما أسهب في الحديث عن أصحاب هذه المناصب ومرتباتهم بداية بمنصب "شيخ الإسلام" (2) الذي كان يمثل مرجعا دينيا وثقافيا، وهو مفتي

---

(1) نفسه، ص103.

(2) **شيخ الإسلام** :يعتبر الشخصية الثالثة في الدولة من حيث الأهمية، وكان له عبر مركزه تأثير كبير فيها، وكانت له الكلمة الأخيرة في القضايا الحقوقية والدينية، وله كذلك عبر فتواه أن يقرر في أمور الإصلاحات والتغييرات الحكومية، وكذا شرعية الانتفاضات في الدولة وبطلانها، وحتى الإفتاء فيمن يستحق السلطة، كما يعود له حق تعيين طبقة العلماء على رأس المؤسسات الدينية في الدولة .**أنظر** :أكرم كيدو، **مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية**، تر: هاشم الأيوبي، منشورات جروس برس، لبنان، 1992، ص 7-8

السلطنة العثمانية، وليس له مدة معينة، كما أنه يعين ويعزل من قبل السلطان، وله مشاركة فعالة في تسيير أمور الدولة لما يتمتع به من صلاحيات، حيث تبلغ أهمية هذا المنصب إلى درجة أن الوزير الأعظم ينفذ ما يرد منه، إضافة إلى أنه المسؤول على جميع الخدمات العلمية مثل: الوعظ والتدريس. (1)

ثم تدرج السفير في ذكر بقية المناصب الإدارية، فذكر رتبة "قاضي عسكر" والتي تعنى "قاضي القضاة"، وله صلاحيات فيما يخص الإمامة والخطابة والتأذين، كما أنه يقضي بنفسه بين العساكر بالشرع، كما أن من مهامه تقسيم التركة حسب ما جاء به الدين الإسلامي، ويغير صاحب هذا المنصب كل سنة.

ثم تأتي رتبة "قاضي عسكر أناضولي"، وله نفس مهام سابقه لكن عمله يكون في ديار الأناضول، وبعدها يتطرق إلى رتبة أخرى وهي "قضاء القسطنطينية"، وهو يقضي بين أهل القسطنطينية، ويقسم التركة من غير العسكر، وبالمفهوم المعاصر للمصطلح نقول أنه يمثل قاضي مدني، تلي هذه الرتبة رتبة قضاء الحرمين مكة والمدينة، وقضاء المخرج وبلدانه ثمانية: القدس وحلب، مدينة أبي أيوب الأنصاري بجوار القسطنطينية، ومدينة إيكيشهرقنار، وسينانيك، وغلطة وأزمير وأسكدار، وغيرها من الرتب. (2)

عكس الجانب الإداري لم يطنب "المكناسي" في تفصيل وشرح الواقع العلمي في عاصمة العثمانيين بل اكتفى بوصف عام يتسم في مجمله بالإيجاز، وتحدث عن المراكز العلمية في (إسطنبول) والمتمثلة أساسا في المساجد التي كانت تعتبر منابر دينية وعلمية وثقافية، والتي اندهش "المكناسي" من كثرتها خاصة مساجد الخطبة، والتي تجاوز عددها 200 مسجد.

ومن أشهر هذه المساجد مسجد السلطان "محمد الفاتح"، والذي نعته بأنه أعظم مساجد القسطنطينية، فهو بمثابة مركز إشعاع علمي في البلاد، ويعتبر أكثر المساجد قراءة وطلبة، وبلغ عدد المدارس الملحقة به 16 مدرسة. (3)

ومما يعبر كذلك عن الواقع العلمي في مركز الدولة العثمانية هو كثرة الخزائن والمكتبات العلمية، لدرجة أعجزت الرحالة في التعبير عن ذلك، حيث أن لكل مسجد

---

(1) المكناسي، احراز المعلى والرقيب، مصدر سابق، ص 93.

(2) نفسه، ص 94،95.

(3) نفسه، ص92.

خزانة، وهناك خزائن كتب من غير المساجد، وللجميع الحق في أن يطالع أو ينسخ ما يريد، وفي هذا إشارة إلى وفرة الإنتاج العلمي وكثرة التأليف وتشجيع الحركة العلمية والثقافية.

كما أتى "المكناسي" بملاحظة مهمة فيما يتعلق بالعلوم التي يتم تلقينها للطلبة، وهي أن جل هذه العلوم تتمثل في المنطق والنحو والتصريف، وعلم المعاني والبيان، أما غيرها من العلوم فنادر، وهو ما يبين اعتماد العثمانيين في منظومتهم التعليمية على العلوم النقلية أكثر من العلوم العقلية، وهو الأمر نفسه للإيالات التابعة لها، كما يتبين لنا أيضا اعتماد العثمانيين على الأوقاف كمشرب ومورد أساسي في تمويل الحركة التعليمية في حاضرة القسطنطينية، الأمر الذي شجع على الطلبة على الدراسة، وأعطانا السفير لمحة عن ترقية العلماء، فلا يمكن للعالم أن يكون مدرسا إلا إذا كان ملازما، والملازم هنا هو من اشتغل في التدريس مدة 07 سنوات، فيمتحن ويشتغل في التدريس بتزكية من شيخ الإسلام وإذن من السلطان، وهو ما يعبر عن حساسية هذا المنصب وأهميته. (1)

من خلال ما سبق نلاحظ أنه ورغم الإيجاز الذي ميز الطرح الذي قدمه الرحالة فيما يتعلق بالجانب التعليمي، إلا أن هذا لم يمنعه من الإلمام بجميع النقاط المرتبطة بهذا الجانب من ذكر للمراكز العلمية، وكثرة التأليف، وطبيعة العلوم الملقنة للطلبة، وأيضا مصادر تمويل التعليم.

خاتمة:

من خلال قراءتنا لرحلة "محمد بن عثمان المكناسي" ومن خلال الطرح الذي أتى به، تتضح لنا أهمية هذه الرحلة والتي يمكن اعتمادها كمصدر مهم لدراسة العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن الثامن عشر، ودراسة التاريخ العثماني أثناء نفس الفترة من زاوية نظر إسلامية مغربية خارجة عن نطاق حكم الباب العالي، والتي تحمل في طياتها العديد من الخصوصيات إذا ما قورنت بغيرها من الإنتاجات العربية الإسلامية التي كتبت عن الدولة العثمانية وكانت تحت سلطانها.

وهنا لابد من تأكيدنا على نقطة مهمة جدا، وهي أن ما أورده "المكناسي" متشابه إلى حد كبير مع الصورة التي نقلها رحالة وسفير مغربي آخر قبل ذلك بحوالي 200 سنة،

([1]) نفسه، ص92.

وهو "علي التمكروتي" الذي توجه سفيرا من المغرب إلى القسطنطينية سنة 1589م، فمعلومات الرحلتين تكاد تتطابق، خاصة فيما يتعلق بالجانب السياسي والتراتبية السياسية للدولة العثمانية التي أتينا على ذكرها في متن هذه الدراسة، هذا ولم يرد في رحلة "المكناسي" ما يؤكد أو ينفي اطلاعه على رحلة "التمكروتي"، ونشير إلى وجود هذا التشابه رغم الفاصل الزمني الكبير بين الرحلتين، فهل يمكن القول أن شكل السلطة العثمانية بقي على حاله طيلة هذه الفترة ولم يتغير؟

كما لا يفوتنا الإشارة إلى أنه رغم مكوث "المكناسي" مدة طويلة في العاصمة العثمانية-04 شوال 1200هـ إلى 29 رجب 1201هـ-ما يقارب 10 أشهر، وبرغم الإفادة الكبيرة والوصف المهم الذي جاء به السفير سواء من الناحية السياسية والإدارية والعلمية وغيرها من النواحي، إلا أننا نجد بعض القصور في معالجته لهذه الجوانب أو النواحي خاصة الوقع الاجتماعي، بحيث أنه ركز أكثر على الأعيان في طرحه دون العامة من الناس. إلا أن هذا لا ينقص من أهمية هذه الرحلة ولا في المعلومات أو المشاهدات الواردة فيها، فهي صادرة عن رحالة ذو رؤية عميقة بالإضافة إلى كونه عالما فقيها،ومطلعا عن الواقع السياسي نظرا لخبرته كدبلوماسي لدى ملك المغرب في مختلف الدول الأوربية.